

شدوذ المتنبي

بقلم الأستاذ محمود مصطفى

مدرس الآداب في كلية اللغة العربية بالازهر

- ١ -

الشدوذ هو الخروج عما ألف : من خلق ، أو عادة ، أو شكل في صورة ، أو قول . هذا هو مصداقه في جميع العلوم والفنون ، وهو بهذا الإطلاق يشمل الخروج مرضيا ومسخوطا ، ومقبولا ومرفوضا ؛ ولكن الاصطلاح يخصه بما ينبو عنه الطبع ، على حين يحبو الجانب الآخر بالالفاظ الجميلة ، فيقول الناس عن الرجل الذي يفوق الرجال : إنه نابغة ، وعبقري ، ونسيج وحده . كما يقولون عن الخلق إذا ارتقى في مدارج الكمال : إنه الكمال المطلق ، والشرف اللاذخ .

بهذا اتضح مرادنا من « شدوذ المتنبي » ، فنحن نريد أن نحصى عليه بعض عيوبه ، وأن نعد عليه من ذنوبه : نريد أن نحاسبه . فهل يتفق هذا المنحى مع ما اندفع فيه أهل جيلنا من إطرائه إطراء لا يشوبه تنقص ؟ هل يوافق هذا المنحى إحياء ذكرى المتنبي لمرور ألف عام على وفاته ؟

رأينا الناس في مصر وغيرها قد طلّعوا علينا بمجالس جلسوها ، ومحافل أقاموها ، وكتب أصدروها ، في شأن المتنبي ؛ ولا تكاد تجد فيها إلا الإطراء والاندفاع فيه ، والتحييد والتقصى له : فالمتنبي شاعر العربية ، وهو شاعر الحكمة وشاعر النفس المتوثبة ، والهمة التي لا تعرف الانخزال ، بل هو شاعر الحياة ، هو الشاعر الخالد ، والشاعر الذي لم تلد الأجيال مثله ...

قد تجتمع في امرئ صفات من الكمال ، وقد تتعدد هذه الصفات تعددا ظاهرا ، ولكن الإنصاف والنقد الصحيح ، يوجبان على الناقد ألا يغفل المعايير

إذا هو استقرأ المحاسن ؛ فإن في فحوى عمله إشعاراً بخلو مدوحه من العيوب ، وهو أمر أجمع الناس على استحالة فيما خلا الله سبحانه وتعالى .
لقد هالني أن رأيت معاصريّ قد نسوا أول شرط من شروط النقد ، وهو وزن الحسنات بالسيئات ، وهم حين كانوا ينقمون هذه الخصلة ، كانوا يلصقونها بالمتقدمين إلصاقاً ، ويعلم الله أن المتقدمين يضربون لنا بحديثهم عن الرجال أرقى مثل للنقد ، وأشرف منزع له ؛ ولكنتا نرميهم بدائنا الذي تجلى في إحيائنا لذكر المتنبي !

طغى على أفهامنا خطأ أن إحياء الذكرى بمثابة التأين للبيت ، أو التكريم للحى ، وأنه لا يجتمع في الذوق أن يدفعنا الإعجاب بالرجل إلى إحياء ذكراه ، ثم نشوب ذلك بذكر مآخذ عليه . هذه هي الفكرة التي طغت على أدباء العصر في هذه السنة التي استنوها ، ولكنهم سجلوا فيها على أنفسهم عيباً لا صفاً .
إن الذي أفهمه من إحياء الذكرى هو جملة معان تتسامى وتلاحق في نفس المحيين لهذه الذكرى : أولها الاعتراف بالوجود لهذا المحتفل به ، ثم الإحساس بأنه جدير أن يشغل الناس بالحديث عنه ؛ فحين نحتفل بالمتنبي اليوم بعد مرور ألف عام عليه ، نعترف بأن المتنبي كان من رجال العهد الماضي الجديرين بأن نحس بوجودهم ؛ فكم كان عصره يموج بالناس ، ويعج بالآحياء ؛ ولكن المتنبي من بينهم في باب الشاعرية هو الذي استرعى أبصارنا . وشغل أفكارنا ، فنحن نخصه من بين عُشْرائه وأهل زمانه بأن نفرده بالحديث . وهذا المعنى من التكريم سام تتطال إليه الأعناق فلا يناله إلا مثل المتنبي .

تكريم المتنبي قد تم في عقد المجالس . وجمع المحافل ، وإصدار الأعداد الخاصة من المجلات في الحديث عنه ؛ ولكن ذلك لا يمنع أن يكون ذلك الحديث جارياً على أصول النقد ، مستوفياً لشروطه .

إلى جانب هذه المعاني في إحياء الذكرى ، معنى آخر أعوذ على المحتفلين بها : هو تصوير مآتها لهم من أسباب الفهم والحكم ، والدلالة على ما وصلوا إليه في مرتب الأدب من منزلة يغتبطون بها ، فهم يقولون لمن سيرى بجهودهم

في تمحيص حياة المحتفل به : إننا قد وصلنا إلى هذا الحد من البحث والتنقيب واستشفاف الحقائق من وراء الحجب ، وإنطاق الآثار بما أضمر فيها أصحابها من معانٍ ودلالات ، يعرضون ذلك مدلتين به ، وبما صار لهم من صبر في البحث ونفاذ في شغابه ، وهم إذا أرادوا أن يمثلوا عصرهم أتم تمثيل ، نحواً جانباً أحكام السابقين وآراءهم في أقوال المحتفل به ، ثم أقبلوا على هذه الأقوال يفهمونها بفكرهم الجديد ، واستعدادهم المهيأ بغير وسائل القدماء ، فأبرزوا صوراً من الفهم ، وجلواً طرفاً من الاستدلال ، وحكموا أحكاماً أدت بهم إليها أسباب لم تهيأ لغيرهم ؛ فتزيد بذلك ثروة الأدب ؛ ونجد عن المتنبي - مثلاً - صورتين جليتين واضحتين : صورة انطبع فيها العصر القديم بماله وما عليه ؛ وصورة أظهرت عصرًا يختلف عن القديم في كثير من مظاهره ؛ ثم إذا جرى الخلف على سنة السلف ، وجاء عصر ممتاز عن عصرنا ، وصار لجيله فهم غير فهمنا وحكم غير حكمنا ، وكان له استقلال غير استقلالنا - رأينا صورة ثالثة ، ولا شك أن هذه ثروة تتضاعف للأدب فينمو على مر الأيام وبذل الجهود .

من أجل ذلك أردت أن أتناول من المتنبي ناحية لا ينكرها أحد ، ولا يستطيع أن يدفعها عن المتنبي متعصب له ، مهما بلغ به تعصبه ؛ تلك هي شذوذه ولم أرد أن أحده بقول أو فعل ، بل سأجعله عاماً يتناول جميع حالاته . سأتناول شذوذ المتنبي : في خلقه ، ورأيه ، وعبارته ، وما أدعى أني بذلك سأخلق بحثاً لم يتناوله الأقدمون ، ولكنني أرى أن الانصاف للتاريخ ولنفس المتنبي لا يكون إلا بجمع عيوبه إلى محاسنه ؛ ووزن فضائله بنقائصه .

أسباب الشذوذ في المتنبي :

حياة المتنبي في متناول كل أديب ليس فيما روى عنها يُعَدُّ عن أيِّ مطلع ؛ لأن حياة المشهورين تبرز في المتداول من الكتب ، وما كان في زاوية منها بعيدة عن الأنظار حيناً ما ، قد أظهره تتبع الناس لأخبار هؤلاء المشهورين وتقصيهم لمجرى حياتهم ، فلنطمئن إلى أن كل ما يروى عن المتنبي من حياته وشعره ومأثور كلامه ، في متناول كل يد الآن ، ولكن ذلك لا يمنع أن يكون

ذلك المروتى ليس بالمثابة التى تظهرنا على المتنبي طفلا وغلاما ويافعا ومراهقا؛ كما أننا لا نطمع منها أن تبرز لنا بيته ونصيب أمه وأبيه من الذكاء وحالهما من الثروة، وكيف تهيأت لهما تنشئته على ما يريدان له من الثقافة .

هذا السبب أو النقص فى حياة المتنبي، ليس نقصا طارئا فى الأدب العربى خصت به حياة المتنبي مصادفة واتفقا؛ ولكنه شىء يعم الأثرية من الذين يهمننا معرفة حياتهم بالتفصيل؛ فأبو تمام، والبحترى وغيرهما من شعراء وكتاب بل ملوك وسلاطين، يعوزنا ما يحتاج إليه البحث الحديث من تفصيل لحياتهم الأولى، أليس هذا الغموض هو الذى أساغ لبعض الحاقدين على المتنبي أن يدعى أن أباه كان سقيا، وأنه انتقل به من الكوفة إلى الشام؟

أو ليست هذه التهمة نفسها، أو ذلك النبز بعينه، هو الذى رمى به أبو تمام حين قالوا: إنه كان يسقى الماء بالجرة فى جامع عمرو بالفسطاط؟ وإن فى اختيار سقاية الماء حرقة لكل مجهول الحرقة، لمعنى يدل على أن هذا المدعى حين أراد قبولاً لدعواه، واستساعة لتهمته، التمس الحرقة الشائعة الكثيرة الرواية فى تلك العصور، حين لم تكن وسيلة إلى الماء إلا تناوله من مجاريه بالقرب، وتوزيعه بعد ذلك فى الأنحاء القريبة والبعيدة؛ فلا شك أنها حرقة كثيرة المحترفين، لا يخلو منها بلد من بلاد الله إذ ذاك، ولا بد أنها كانت من الكثرة والشيوع بحيث هانت وهان أصحابها على الناس، فصارت دعواها مقبولة فى كل إنسان لا تعلم حرفته بالتحقيق. ثم حملت مع ذلك هذا النقص الذى جره شيوعها وكثرتها وهوانها على الناس. ومن هنا دخل الشاعر إلى هجاء أبى الطيب بقوله:

أى فضل لشاعر يطلب الفضل من الناس بـُكْرَةٍ وعَشِيًّا؟

عاش جيناَ يبيع بالكوفة الماء،، وحيناً يبيع ماء المَحْيَا!

من أجل هذا الغموض فى حياة المتنبي الأولى لا نستطيع أن نستنبط أو نعلل ما صار إليه فى مستقبل أمره، كما جرت عادة الباحثين فى أيامنا. ولو أن هذه الحياة كانت مبسطة أماناً، ميسرة لنا نراها رأى العين، ما استغننا أيضاً

أن تكون كهؤلاء الذين يؤمنون بالإيمان كله بصلة النبوغ بها ، و انتهاء الانقمار إليها ؛ لسانا من هؤلاء المؤمنين بتلك النظرية التي يبالغ أهل جيلنا في تطبيقها . يقولون كما يقول بعض الأطباء : « قل لي ماذا تأكل ؛ أقل لك من أنت ، فأدبائنا يقولون : « قل لي ماذا قرأت ، وماذا حفظت ، ومن هم أستاذوك وخطاؤك ؛ أقل لك من أنت ،

قد يروعك من أصحاب هذا الرأي ضخامة الأساس الذي يبنون عليه حكمهم : « إن المرء صنعة البيئة ، وقول سبنسر : « كل شيء يصيب المادة يترك فيها أثرا لا يزول ، فهم يفخمون في مقدار استنباطهم على قدر ما لنظريتهم من ضخامة في الصدق ؛ فهناك الاستعداد ، والفطرة التي فطر الله الناس عليها . ولو بنينا أسباب النبوغ أو التخلف على الفطرة وحدها ، لكننا أقرب إلى الصواب ، لأن الاستعداد سبب أقرب من البيئة ، فطاوعة النتائج له أقرب إلى العقل من مطاوعتها للبيئة . وإني - لأذكر خطأ آخر وقع فيه الكيميائيون قديما ، فشَقُّوا وأشَقُّوا الناس مهمهم ؛ هذا الخطأ مبني على نظرية صادقة متينة الأساس ، واضحة النهج ؛ ولكن الصلة بينها وبين ما بنى عليها ينقصها شيء غاب عن أذهان المفكرين ، فضع من أجله جهدهم ، وفنى نشاطهم ومالهم في تحقيق هذا الاتصال ، الذي ظل تنقصه حلقة واحدة لو أنها وصلت بين طرفيه لا تصل تفكيرهم وتحقق حلهم .

تلك هي نظرية الكيمياء الخيالية ، كيمياء الذهب ، التي زعموا فيها إمكان تحول بعض المعادن الدنيئة إلى معدن الذهب النفيس ، قالوا : إن كل معدن يتكون من ذرات مختلفة العناصر ، بنسب يترتب على اختلافها اختلاف تلك المعادن ، فالححاس يتركب من ذرات . إذا تغيرت نسبتها كان من نتائج ذلك تكون الذهب ، وهذه النظرية صادقة يؤيدها التحليل الحديث ، ولكن العقدة في التحليل والتركيب ، فإذا تيسر لنا ذلك ، حصلنا على الذهب الوهاج ١١ وفي هذا التحليل والتركيب تحللت قوى القدماء ، وركبتهم الهموم التي اغتالت عقولهم ، واستنفدت مادتهم ؛ كذلك نحن في وصل حياة الناس ببيتهم ينقصنا اعتبار ذلك السر الذي يد الله مفتاحه ؛ وهو الذكاء الموهوب الذي لا نصل إلى وزنه وبيان كنهه وكيفه .

فمن نواحى نبوغه علو همته وطموح نفسه . وما يستنكر على أحد الهمة والطموح ، ولكن المستنكر فيها أن يحاول بهما امرؤ فى مثل نشأة المتنبي ووضاعة بيته ، وصولاً إلى الحكم والولاية لأمور الناس ، وذلك ما قاله المتخرجون من المبالغة أو تصديقها فى شأن المتنبي . ومهما يكن من تعدد الولايات فى أيامه ، أو تحققها لغير ذوى الأهلية لها ، فإننا نعد تطلع المتنبي لها شذوذاً أو خروجاً على المألوف فى عرف الناس . نعم وثب خصى دَمِيت أذنه فى يد النحاس ، وكان للفلسين أثر فى تقديره يوم بيع . ولكن بين موقف كافور فى يد النحاس ، وتربيته فى دست الملك حدثت أمور وجرت أقدار صار معها تحقق هذا الحلم أمراً جائزاً ، فكافور الخصى تنقل فى خدمة سيده الإخشيد وساعده ذكاؤه ونفاذه فى الإخلاص لسيده ، واطمئنان هذا السيد إلى جانبه ، وارتياحه إلى خضوعه . على أن سما قدره حالاً على حال وطبقاً عن طبق ، ولم يكن فى انتقاله فى تلك المراتب طفرة تستغرب ، حتى صار الخصى معلماً ابن الإخشيد ، فوصية ، ولعله لم يُرد لهذه الوصاية إلا حين أمن أولو الشأن جانبه ؛ فى غفلة هؤلاء واستنامتهم إليه ، استطاع أن يصبح بين يوم وليلة صاحب الأمر ، المستبد به دون سيده ؛ وقد دب استبداد كافور بالأمرديباً خفياً ، وسرى سر يانا بطيئاً ، فكان كديب الغذاء فى الأعضاء ، أو ذيب الملل فى مستهامين إلى غاية من البغضاء . يدلك على ذلك أنك لم تجد نكيراً من أحد ، ولا ثورة من عامة ، ولا حركة من جيش ؛ فهما تصورنا المصريين نياما عن حقوقهم ، معطلين لأمر مملكتهم ، لم يفتنا أن لتناسب الحالات التى تنقل فيها كافور ، وانتهائها انتهاء طبيعياً أو كالطبعى إلى توليه أمر البلاد . أترأ فى قبولهم لتلك النهاية التى ترى البون شاسعاً بينها وبين بدايته وينبغى أن نفهم أن قلب مملكة أو الوثوب إلى ولاية ليس أمراً سهلاً ، بل هو من أصعب الأمور ، ويكفى أنه لا يتم إلا مصحوباً بالثورة والدم والهرج والمرج ، مهما تجمعت له أسباب ومكنت منه مؤهلات . وما نطيل بذكر ما يحتاج إليه هذا الأمر من عصية تمتد إلى عهود سابقة وينضم إليها حقوق مهضومة فى

هذا التراث المطلوب ، حتى يكون للأعوان صلابة في هذا الحق الذي يريدون ،
ووجهة في دفع المعتصب الذي يزعمون .

أفلا يكون المتنبي بعد ذلك شاذاً في طموحه ، خارجاً عن مألوف الناس في
طلبه ، حين ظن أن الملك يستفاد بهذه الأزيمة الرثة ، ويبني على هذه الأسس
الواهية ، وحين خيل له أن جماعة من أوشاب الناس وأفنائهم يهيج بهم الجوع
في الصحراء ، فيطمعهم المتنبي بالشبع في ولايته ، فيخرج بهم من حدود صحرائهم ،
وما هي إلا انتباهة من أمير حمص ، وثلة من جنوده المرابطين ، حتى يذعر هذا
الجمع ، ويقع المتنبي في يد لؤلؤ ، فيكون منه البكاء والشكاية المرة والاعتذار
الصياني حين يقول لهذا الأمير :

تَعَجَّلْ فِي وُجُوبِ الْحُدُودِ وَحَدِّ قَبِيلِ وُجُوبِ السُّجُودِ
ومنها يتوجع من القيد ويدل بالاستعطاف :

أَهْ أَلِكْ رِقِي ، وَمَنْ شَأْنُهُ هَبَاتُ اللَّجِينِ وَعِثْقُ الْعَبِيدِ
دَعْوَتُكَ عِنْدَ انْقِطَاعِ الرَّجَا ، وَالْمَوْتُ مَنَى كَجَبْلِ الْوَرِيدِ
دَعْوَتُكَ لَمَّا بَرَّانِي الْبِلَى وَأَوْهَنَ رِجْلِي ثَقْلُ الْحَدِيدِ

ولنقف وقفة قصيرة عند ذل هذا واعتذاره فنقول : إن طلب الملك غالباً
يصحبه صلابة في العود ، وشدة في الشكيمة ، واستحصاء في المرة ، يقوى أركانها في
النفس وجهة الفكرة التي دفعت التأثير إلى ثورته ؛ حتى لا يكاد يعدل عن طلبه
بين السيف والنطع . هذا شأن التأثيرين الجادين الذين نبا بهم الحظ في الوصول
إلى ما يريدون ، ولم يخنهم في أنفسهم ، ولا في إيمانهم بفكرتهم ، فذلك لهم آمال
دون آمالهم ، وسيقت إليهم رغائب بدل رغبتهم ؛ فلم يعدلوا عنها وآثروا أن
يموتوا في سبيلها .

هذا هو شأن الثورة في طلب الملك إذا كانت مدعومة بالحق أو شبهه . وليس
في قصة المتنبي أمارة من ذلك . إذا فقد كان المتنبي شاذاً في طلب الملك .

أما إذا سائرنا من يقول إنه ادعى النبوة وآتى الناس بقرآن يقول فيه . « والنجم
السيار ، والفلك الدوار ، والليل والنهار ، إن الكافر لفي أخطار . امض على سننك ،
واقف أثر من كان قبلك من المرسلين . فإن الله قامع بك زيف من ألدنى الدين ،
وضل عن السبيل ، فأمر المتنبى فى هذه الحال هين علينا ، لا نعيأ بالتماس التوجيه
لهذه النزعة ولا نحاول ربطها بالهمة أو الطموح : إذ أن كل ما يعد من باب
الطموح فهو موصول بالعقل ، مؤيد بالفكرة ، وإن كان إلى حد بعيد ، وعلى جانب
من التأيد وإله ضعيف . فأما دعوى النبوة - بعد ما كان من دخول النار
فى دين الله ، وبعد ثلاثة قرون لا تزيد دين محمد إلا تأييداً وتمكيناً - فإن شأن
المتنبى يسهل علينا جداً ولا نجد مشقة فى الحكم عليه . هو مجنون حتماً إن كان
قد صح منه هذا ، أما الذين اتبعوه - إن صح أن قد اتبعه أحد - فهؤلاء إنما اتبعوه
للعبث به والسخرية منه وانتظار مصيره . وهم أول الأمر وآخره من أولئك الضلال ،
الفارغى اليد من الأعمال ، الذين ربما طمعوا فى أن يكون لهم معه غنى من سطو ،
أو عدوان على سرب آمن .

ورأينا أن نستبعد على المتنبى هذه النزعة ، بل نقول : إن أعداءه صوروا شذوذه
فى طلب الولاية بهذه الصورة ، نكايته به أو التماسا لعذر أنفسهم إذا هموا بقتله أو
قتل أتباعه ، ولكن شأن المتنبى وأتباعه كان أهون من كل ذلك .

وما شذ فيه المتنبى ، كبره وتعاضفه ، وليس الكبر شذوذاً دائماً ، فإن من
الناس من يحسن منهم ذلك ويكون مألوفاً للناس منهم . بل منهم من لا يحسن به
التواضع كما يحسن به الكبر . وهؤلاء هم الملوك الذين ارتفعوا فوق مراتب
الناس ، وقد جرت العادة باحتجاجهم وتركهم المشى فى الأسواق ، وألف الناس
منهم قلة القول وتجنب الهذر ، فلو أن أحدهم حضر الأسواق وابتذل نفسه فى
خلاط العامة لكان ذلك منه شذوذاً ، كما يكون شذوذاً من أمر الرجل من السوق ،
أن يتشبه بالملك فيحتجب ويرفع عن أنداده أو من هم فوقه .

وإنما عددنا كبر المتنبى الذى أثر عنه شذوذاً ، لأننا لانجد له من حياته ومنزلته

بين الناس ما يبرره ، ويوجد للمتنبي شبهة في التمسك به .
 لم يكن المتنبي من الثراء بحيث لا يكون في جلسائه أثرى منه ، ولم يكن من العلم بحيث لا يكون منهم من هو أعلم منه ، ولم يكن من الشاعرية بحيث تزل جميع الأقدام عن موقفه ، ولكنه كان متكبرا على كل جليس ، شاعرا بأنفه على كل ذى جاه أو منزلة ، وقد يكون للمتنبي شبهة إذا تكبر على هؤلاء ، ولكن ما شبهته إذا تكبر على الملوك ؟ ما شبهته في أن يخالف سنة الشعراء في حضرة سيف الدولة ؟ فقد كانوا جميعا يقبلون البساط بين يديه ويقفون للإشادة ، فأما المتنبي فلم يكن ينشده إلا جالسا وهو متقلد سيفه . وقد لاحظ ذلك بعض الحاضرين مرة حين كان المتنبي ينشد قصيدته :

لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا وَعَادَاتُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الطَّعْنُ فِي الْعَدَا
 فقال : لو أنشدتها قائما لأسمعت الناس . فقال له أبو الطيب : أما سمعت أولها ؟
 يريد أن هذه عادته ، ولا سبيل إلى تغيير العادة ، فاستحسن هذا الجواب منه وعد من بدائع .

ولنفق أمام هذه القصة ففى في نظرنا - مضمومة - إلى غيرها - دليل تكبره لا كبره ، وآية تكلفه لا طبعه ، لو كان هذا طبع المتنبي للزمه في حضرة كافور ، فقد كان يقف للإشادة ، وما أذله إلا حرصه وطمعه أن ينال ولاية منه ، وإلا فقد كان سيف الدولة أولى بالهيبة ، لفحولته وعزلة نفسه وشجاعته . فإذا كان المتنبي قد جرى على مألوف الناس حين أنشد كافورا وهو واقف ، فقد شذ عنه حين فعل ما كان يفعل بحضرة سيف الدولة . كذلك كان شاذا ، حين أبى مدح غير الملوك ، فلم يصح لإلحاح أبي القاسم بن عباد ، حين ألح عليه في زيارته وعاهده أن يشاطره ماله ، ولكن العظمة التي تخيلها المتنبي لنفسه جعلته يأنف من مدح ابن عباد . والشذوذ قد يحمل صاحبه على الامتناع من ورود الماء على شدة الظما ، فليس الكبر في مثل هذه الأحوال كبرا ، ولكنه خطرات من الوسواس وخيال من الوهم ، يصور لصاحبه العظمة ، مصحوبة بركوب الرأس ، وتنكب الطريق .

وقد شد المتنبي في شجاعته ، والشذوذ فيها يسميه علماء الأخلاق تهورا ، وهو مذموم قدر امتداح الشجاعة ، وهو دليل على الرعونة إذا دلت الشجاعة على الوقار والثبات . شد المتنبي في شجاعته فيما نعلم شذوذين ، أحدهما حين ثبت مع سيف الدولة في ستة من الجنود فتمكنوا من اختراق صفوف الأعداء ، والنجاة . هذا شذوذ إلى حد ، شذوذ أدركته الروية آخر الأمر ، وإلا فقد كان ينتهي بالجنون إذا ثبت لهؤلاء الأعداء حتى يصيبه الردى . وما من العقل استدعاء الموت بمثل هذه المواقف . وقد يكون لسيف الدولة مبرر في موقفه ؛ فهو صاحب الملك ، لا عار عليه أن يبدل في سبيله نفسه ، لأن بالملك حياة نفسه ، فأما هذا الضيف الطارىء ، الذى يتمرس بمعاناة الحروب ويتفكك باللقاء ، فهو إذا حارب فلغير عداوة سابقة أو ثار قديم ، وإنما يحارب مجاملة لصاحبه وإظهارا لقوة قلبه ، فوقفه تمثيل من أول خطواته إلى آخرها ، لذلك كان شذوذا من المتنبي غير مقبول أن يثبت وقد انهزم قواد الجيش وانحاز أبطاله .

أما ثانى الموقفين ، فهو موقفه حين عاد من فارس ، وحقائبه بُجُرْ بالأموال ، التى أفادها من عضد الدولة وابن العميد ، وفي طريقه إلى الكوفة أعداء له ، أو أعراب أول صفاتهم قطع الطريق ، فلم يُصنع إلى نصيح الناصحين ، ولا استمع إلى إرشاد المرشدين ؛ بل نطق خلفاً من القول ، ودل على غرور ما بعده من غرور ، حين قال وقد ذكر يأس بنى ضبة ، وعداوة فاتك بن أبي جهل منهم « لو أن مخضرتى هذه ملقاة على الفرات ، وبنو ضبة مُعْطَشُونَ بِخَمْسِ ، والماء يلعب كبطون الحيات ، ما جرؤ لهم ظِلْفٌ ولا خُفٌ أن يَرِدَهُ ، ثم سار على هداية هذه الضلالة من رأيه ، حتى لقي حتفه كما قدر النصحاء . وقد كان يقدر له الفرار فالتجاة . لو لا ضلالة أخرى ، وخرق جديد عرض له ، أبى معه إلا أن يكون . من بين الشعراء - صادقاً فيما يدعى ، حين هم بالفرار فدكره غلامه بقوله :

الْخَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالْبَيْدَاءُ تَعْرِفُنِي وَالسَّيْفُ وَالرَّمْحُ وَالْقِرطَاسُ وَالْقَلَمُ
ثَبَّتْ وَقَالَ : « قَتَلَنِي . قَتَلَكَ اللَّهُ ! ، وَقَاتَلَ حَتَّى قَتَلَ .

شذوذ المتنبي في أقواله :

كلامنا في هذا الشذوذ يتناول ثلاثة مناح : الفكرة ، اللفظ المفرد ، التركيب .
ولسنا ندعى أن كل ما كان من شذوذ المتنبي في هذه النواحي كان متكلفا متصنعا
ومجتلبا اجتلابا ، بل نؤمن بأن بعض ذلك وقع منه بغير عمد ، مثل انتحائه
ناحية التقسيم المنطقي والتحديد الفلسفي بكلمة « أول ، والثاني » في قوله :

الرأى قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجْعَانِ هُوَ أَوَّلٌ ، وَهِيَ الْمَحَلُّ الثَّانِي

أليست هذه لغة المنطق وتقسيم الفلسفة ، وهي لاشك رطانة في الشعر ، إذا
قيست إلى تلك الصياغة العربية ، التي صاغها الباحث في ذات المعنى ، حين قال :

وَيَوْذُ الْمَدُّ لَوْ تَضَعُفُ الْجَيْشَ عَلَيْهِمْ وَتَصْرِفُ الْآرَاءَ

نعم هذا المعنى هو ذلك ، ولكن الشاعر المطبوع يأتي به نتيجة بلامقدمات ،
أما الشاعر المصنوع فانه يأتي به كما ترى محدودا بأول وآخر .

كذلك خذ مثلا تعليله في قوله :

وَلِذَا اسْمُ أَغْطِيَةِ الْعِيُونِ جُفَوْنَهَا مِنْ أَنِّهَا عَمَلُ السُّيُوفِ عَوَامِلُ

فهو يعمل باللام ، ثم بمن في سياق سقيم ، لا تألف مثله في شعر الشعراء ، أو
خذ مثلا استعماله لمشتقات فعل الكون ، التي أكثر منها الفلاسفة وأهل المنطق ،
كقوله :

إِنْ كَانَ مِنْكَ كَانَ أَوْ هُوَ كَاتِنٌ فَبَرَأْتُ حِينَئِذٍ مِنَ الْإِسْلَامِ

لم تلفت الصاحب بن عباد في البيت إلا كلمة حينئذ ، فقال : إنها هنا أنفر
من عز مؤفات ، وأنا موافقه فيما رأى ولكني أقول : إن أس الثقل في كلمتي
كان وكاتِن .

هذا وأمثاله في شعر المتنبي شذوذ غير مقصود ، لأن الرجل تأثر فيه بدراسة
الفلسفة ، وترديد ألفاظها وأساليبها . ومهما يحاول المرء لعبارة الرق فهو مأخوذ
بأساليب لا يستطيع الخلاص منها ، لكثرة دورانها على لسانه وطروقها لسمعه .

أما الشذوذ المتعمل الذي كان يقصد به الإغراب ، ويروى فيه عن تلك الروح المتمردة على النظام ، النافرة من العادة ، فذلك كثير في كلامه .

فمن ذلك استعماله الكلمات التي هي من التوغل في الغرابة بحيث قل أن تجدها في شعر جاهلي من شاعر معروف بعنجهيته ، وليس معقولا أن تكون هذه الكلمات وردت في شعر المتنبي ، من فرط علمه باللغة وإحاطته بغريبها وألوفها ، حتى اشتبا عليه واستويا في نظره . ولكن الشذوذ هو الذي جعله يحرص على جمع تلك الكلمات وتفريقها في شعره ، حتى يلتفت الناس إليه ، ويشغلوا به ، ومن ذلك كلمة ابتشاك بمعنى كذب في قوله :

وَمَا أَرْضَى لِمُقْلَتِهِ بِحُلْمٍ إِذَا انْتَبَهَتْ تَوَهَّمُهُ ابْتِشَاكَ
قال الثعالبي : « لم أسمع في هذا اللفظ شعرا قديما ولا محدثا سوى هذا البيت ، ومن ذلك كلمة التوراب بمعنى التراب في قوله :

أَيْقِظْهُ التَّوْرَابُ قَبْلَ فِطَامِهِ وَيَأْكُلُهُ قَبْلَ الْبُلُوغِ إِلَى الْأَكْلِ ؟
قال صاحب : « ومن أطمأ ما يتعاطاه ، التفاصيل بالالفاظ النافرة ، والكلمات الشاذة ، حتى كأنه وليد خباء ، وغدّي لبن ، لم يطأ الحضر ، ولم يعرف المدر . فمن ذلك كلمة التوراب . وليس ذلك سائغا لمثله وهو وليد قرية ومعلم صبية . »

أريد أن أنبه الذين ظنوا أن مرجع غرابة المتنبي بدويته ونشأته ، فاندفعوا يحكمون أسباب الربط بين النشأة والمصير . أريد أن أنبههم إلى أن هذا إنما كان من المتنبي تكلفا ظاهرا ، حكم به قبلنا الذين عاشروه ، فلم يستسيغوا أن يكون عليه باللغة ، ونشأته بين أهلها داعية إلى ما كان منه من هذا الإغراب ، فالصاحب يقول في مناسبة استعمال المتنبي لآخاء جمعا لأخ في قوله :

كُلُّ أَخَائِهِ كَرَامُ بَنِي الدُّنْيَا وَلِكِنَّهُ كَرِيمُ الْكَرَامِ^(١)

(١) يلاحظ أن البيت ورد في الديوان « كل آبائه » ولعل ما علق عليه صاحب رواية أخرى للبيت

لو وقع الآخاء في راية الشماخ لاستنقل فكيف بأنيات منها :
 قَدْ سَمِعْنَا مَا قُلْتَ فِي الْأَحْلَامِ وَأَنْلَنَّاكَ بَدْرَةً فِي الْمَنَامِ
 والكلام إذا لم يتناسب زيفته جهابذته وبهرجته نقاده ،

ومن شدوذه الذي عرف به أكثر مما عرف باستعمال الغريب ، ذلك التعقيد في الأساليب ، والالتواء في التعابير ، بما يسميه علماء البلاغة تعقيدا لفظيا ، إن كانت الجناية فيه على اللفظ ، ومعنويا إن كانت الجناية على المعنى . وهذا الشدوذ في المتنبي ، لا يكاد ينكره معجب به ، متعصب له ، مهما احتال لذلك والنس العلل يكبر عقله ودقة فهمه .

هذان النوعان من التعقيد ، عرفا في العربية من شعراء عرفوا بالشدوذ ، وإن شدوذهم لا يقاس إلى شدوذ المتنبي . ألسنا نعر بأمثله من ذلك للفرزدق في قوله :

وَمَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ إِلَّا مُمْلَكًا أَبُؤُمَّهُ حَيَّ أَبُؤُهُ يُقَارِبُهُ
 وقوله :

إِلَى مَلِكٍ مَا أُمُّهُ مِنْ مُحَارِبٍ أَبُؤُهُ، وَلَا كَانَتْ كَلِيبُ تُصَاهِرُهُ
 وقوله :

تَعَشَّ فَإِنْ عَاهَدْتَنِي لَا تَخُونَنِي نَكُنْ مِثْلَ مَنْ يَأْذُبُ يَصْطَحِبَانِ
 وما أدعى أني استقصيت ما أثر عن الفرزدق من ذلك ؛ ولكني لا أكاد أعد له غير ما ذكرت إلا بيتا أو بيتين ، والفرزدق معروف بالشدوذ كما قلنا ، أليس هو الذي أكثر من الغريب عامداً حتى قالوا : إنه ، أحياء في شعره تلك العربية ؟ أليس هو الذي شد في سرقاته فكان يعتصب الشعر من قائله ويتهدهه إذا ادعاه بعد ؟ أليس هو الذي يقول في ذلك : أحسن السرقات سرقة لا توجب حداً ؟ يريد سرقة الشعر واغتصابه .

ولسنا في صدد الحديث عن الفرزدق حتى نعد نواحي شدوذه ؛ ولكننا نقول : إنه لما كان شاذاً تجلى شدوذه في تعقيد ، كذلك المتنبي شد كثيراً ، فعقد كثيراً ،

وارتاح إلى حيرة الناس في فهم شعره ، وكثرة سؤالهم له عن مراده ، ولم يستطع
كتمان الغبطة بهذا ؛ فقال :

أَنَا مِلٌّ جُفُونِي عَنْ شَوَارِدِهَا وَيَسْهَرُ الْقَوْمُ جَرَّاهَا وَيَخْتَصِمُ
سيقول المحتجون للمتنبي ما شاءوا وشاءت لهم فلسفتهم ، سيقولون : إن هذا
كان من المتنبي فرط ذكاء ، وفرط امتلاء بالمعاني ، وفرط حقد على الأيام ،
وإنه شينشة أخزم ، وجمجمة موتور ، ونفثة مصدور . ولكن ، بعض هذا أيها
المعجبون ! وهو نأ ما أيها الخدوعون بتمويه هذا الرجل وشعبذته ، فهذا الرجل
كان يسهر في تعويج هذا الكلام وتشويه هذا النظام ، حتى يلتوى على الناس
فيسهروا من جرائه ، ويشقوا بدائه . وإلا فأى حال نفسية أو داع (مهما اشتد)
يحمل قائلًا على أن يقول :

أَحَادٌ أَمْ سُدَّاسٌ فِي أَحَادٍ لِيُيَلِّتَنَا الْمَنُوطَةُ بِالتَّنَادِي ؟

فهو يتجاوز حدود اللغة ، فيستعمل صيغة أحاد وسداس الدالتين على توارد
المعدود على العدد المصوغه منه ، في معنى العدد ، فيريد من أحاد واحدة فقط ،
ومن سداس ستة فقط ، وهو غير ما شرطوه في استعمال هذه الصيغ ، ثم يحذف
همزة الاستفهام الداخلة على أحاد ، وأصلها أحاد ، وهو كما قالوا ضرورة ؛ ولكنها
مختلة . ثم هو يريد من وراء كل هذا التعقيد أن هذه الليلة المتصلة بيوم القيامة
تجمع ليالي الدهر كله ، وكل ليلة من ليالي الدهر : أهي واحدة أم ست ليالٍ في كل
ليلة ، فتكون الليلة سبع ليالٍ أي أسبوعا .

وبعد ، فاسمع الجليلة التي أثارها المتنبي حول بيته : قال صاحب بن عباد :
وهذا من عنوان قصائده التي تحير الأفهام ، وتفوت الأوهام ، وتجمع من الحساب
ما لا يدرك بالارتباط ، والأعداد الموضوعه للوسيقى . وقال الواحدى : وقد
أكثروا في معنى هذا البيت ثم لم يأتوا ببيان مفيد يوافق اللفظ . وإن حكيت
ما قالوا فيه طال الكلام . وقال الشيخ ناصيف اليازجى شارح ديوانه : ولعمري
ليس مثل هذا مما يدخل في فضيلة ناثر أو شاعر ، وإنما يصح التكلم به في مقام

الإلغاز والتعمية ، لافى مقام المدح والتشبيه ، ثم هو - على ما فيه من غموض المغزى وبعد التأويل - لا يخرج عن تجشم عرق القربة فى استنباط الغرض من معنى قوله: **مِنْ بَعْدِ مَا كَانَ لَيْلِي لَا صَبَاحَ لَهُ كَأَنَّ أَوَّلَ يَوْمِ الْحَشْرِ آخِرُهُ** والفرق بين التعبيرين ظاهر .

وأى داع يدعو إلى كد الأذهان ، بل إلى رَضِّ الأبدان فى فهم قوله: **وَكُلُّ شَرِيكَ فِي السُّرُورِ يُصْبِحِي أَرَى بَعْدَهُ مِنْ لَا يَرَى مِثْلَهُ بَعْدِي** المصيح هنا مصدر ميمي بمعنى الإصباح ، والمعنى : إذا عدت إلى أهلى ، فسروا من عودتى إليهم ، وسررت ببلقائهم ، فإنى لأز المنعصا لفرأق ابن العميد : لأنى رأيت بأبن العميد رجلا لم ير هؤلاء مثله ، لأنه لا نظير له فى الدنيا ، ولا يغرنك قولنا هذا فى بيان البيت ؛ فالوصول إليه عويص . أكثر الشراح من الأخذ والرد فيه . ولا نطيل بذكر شدوذ المتنبي فى هذا الباب فهو أمر شغل الناس طويلا فى غير جدوى إلا حل رموز ، وتفسير رطانة .

حقيقة المتنبي

وبعد فهل كان المتنبي إلا شاعرا له محاسنه ومساويه ، فأما ما كان وما يكون حوله من دعاوى وخصومات ، فذلك شئ جسمه الوهم وبالع فیه ، لما كان عليه المتنبي من شدوذ فى أطواره كلها ، والناس قديما متعلقون بالغرائب ، مندفعون وراء العجائب ؛ فهم إذا سمعوا بمخلوق شاذ الخلقة حجوا إليه . وبذلوا الجهد فى تطلع طبعه ، وبحثوا عن أصله وفرعه ، فلولا ما سمعناه عن المتنبي من كبره على ضيوفه ، وشموخه بأنفه على قصاص حضرته ، حتى يتخذ مجلسه أعلى من مجالسهم ، ولا يرد سلاما على قادم أو منصرف منهم ، لولا ذلك وأمثاله ما عشنا المتنبي أكثر من غيره من الشعراء ، وآية ذلك أنك ترى أكثر الحديث عنه يدور حول غرابته ، وأنواع شدوذه .

حكى لى صديق ، قال : إنه كان يوما ما من صرعى الإعجاب برجل شاذ ، هو طالب ، قضى عشر سنوات أو تزيد فى أربع فرق دراسية ، وكان على كثرة الرسوب

والسقوط شامخ الأنف ، مصعر الخد ، ناظرا في عطفه ، قال صاحبي : وكنت أنا أحد هذه الطبقات التي مرت بهذا الطالب ، فلكتني صلابة هذا الرسالة (إن صحت هذه الصيغة) وكنت أنقرس فيه ، وأتعرّف مآتي هذه الصفاقة ، التي جعلته ضحوكا مستهينا بهذا الإخفاق ، كأنما شغله معنى أسمى من النجاح ، وغاية أكبر من نيل الشهادة فكنت (بنوع من البله) أكبر فيه هذا المعنى ، وهذا الغرض الذي بدا لي أنه تعلق به ، وأقيس نفسي إليه فأجدني متهما نفسي بالتقصير ، عاضا أصابع الندم ، لأنني خرجت من امتحان الحساب مثلا ولم أحل جميع مسائله ، وربما كان الذي قاتني مسألة أو بعض مسألة ، على حين يترك صاحبنا ورقة الإجابة بيضاء ، ويخرج يقتل شارب ، ويسير في حوش المدرسة ، كأنه حضرة الناظر ، حين يتمشى معجبا بآثار نظامه ، وإحكام ترتيبه ، قال صاحبي : خرجت من المدرسة ، وخرج غيري من الطبقات العشر التي مرت بهذه الصخرة الصماء ؛ وكنا نجلس على بعض القهوات ، حول هذا الراسب الذي لا يدوب ولا ينحل كبره ، وكأنا نحن الراسبون وهو الناجح ، نجلس كما يجلس خاق الله . أما هو فيتصدر المجلس ، ولا يزال يحتاج على سخونة الماء ، ورداء البن ، ويستدعي صاحب القهوة وعمال المقصف والتدل ، كأنما هو أمير من الأمراء ، سمح فجلس على قهوة في باب الخلق يوما ما ، والسر العجيب أن كان هؤلاء يصيخون لإشارته ، ويحييون نداءه ، وربما طلبت أنا كوب الماء ، أو فنجانة القهوة التي سأدفع فيها قرشا مثل قرشه ، فلا يجاب طلبي إلا بعد حين ، وبعد طول إلحاح ، وإذا جلسنا حول هذا الأخ فإنه يستسيغ أن يحجب وجهه عن جليسه بصحيفة يقرأها الساعة والساعتين ، لا يهتم أن يحيي صاحبه القادم عليه بكلمة ، أو يرد على خطابه ولو بإشارة ، وإذا فرغ من الصحف ظل ناظرا في السماء ، كأنما ركب رأسه خطأ ، فكان ذقنه في حذاء جمجمته عرضا ، وأما شفته السفلى (وقد صيرها مشفرا بما أطال من مطها) فقد برزت نحو إصبعين عن شفته العليا ، فهو دائما مبوبز ، وقد بلغ من كبره أن كان تنفسه كله زفرا وشهقات ؛ فلا بد أن تسمع صوت نفسه خارجا وداخلا ، وصاعدا وهابطا .

قال صاحبي : لم يكن في هذا المخلوق حسن يجذب إليه الإخوان ، ولا أدب

يجمع حوله الأخدان، ولا شيء مما يروق الناس في الناس، ولكنها الغرابة والشدوذ
أسرّاني حيناً، حتى فككت قيودهما عن نفسي، وسُمت منظر هذا المخلوق، ولكن
غيري لا يزال واقفاً في الأسر يجالسه ويتعلق به، ويروي غرابته وأمثلة شدوذه
معجبا؛ لأنه لم يسأم بعد ذلك الشدوذ.

هذا شأن الناس مع كل شاذ، يجعلون العجب به في موضع السخرية منه،
والالتفاف حوله بدل الانصراف عنه.

وأقول: لو أن شعر المتنبي ألقى إلى خالي الذهن من أطواره وأحواله، لكان
حكم الناظر فيه، أن المتنبي رجل من الناس، وشاعر من الشعراء، أجاد المدح أو
بالغ فيه، ووصف الحروب فأبدع في وصفها، وهجا فأمض وأخش، ولكنه
تغزل فكبا، ودل على خشونة وتنطع، وله إلى جانب ذلك كثير من حوشية في
الألفاظ، وتعقيد في الأساليب.

هذا هو المتنبي، ولكن الطبول التي قرعها لنفسه، وردد الناس صداها في عصره
وبعده، هي التي ألقت في رُوع الناس أنه شاعر لا كالشعراء، وإنسان لا كالإناس.

محمود مصطفى

